ملاحظ قرآنية

من فكر الإمام الرضا عليه السلام

Quranic Notes

The Thought of Imam Al-Ridha

(Peace be upon him)

م. د . حسام عدنان الياسري
جامعة القادسية / كلية الآداب
قسم اللغة العربية

Lecturer. Dr. Husam `Adnan Al-Yassari
University of Al-Qadisiya
College of Arts
Department of Arabic

... ملخص البحث ...

يعنى هذا البحث بجملة من القضايا القرآنية التي ذكرت في أقوال الإمام الرضا عليه السلام وأحاديثه التي يفسر بها العديد من النصوص القرآنية المباركة، ويقف عند بعضها الآخر، مما يمثل إشكالات في الفكر الإسلامي؛ لما فيها من نظريات تخص مباحث التوحيد وعصمة الأنبياء وما جاء في ذلك من مواقف للمسلمين شرّقوا بها وغرّبوا ، مبتعدين عن الفكر المحمدي الأصيل.

ولهذا كانت مقولات الإمام عليه السلام في هذه المباحث فيصلاً في إثبات (أحدية الله) تبارك وتعالى ونبذ فكرة الإشراك به، أو جعله (ثالث ثلاثة)، فضلاً عن تقويم الإمام ما تؤمن به بعض الفرق الإسلامية من نسبة الخطأ إلى الأنبياء وعدم التصديق بعصمتهم. ولما تميزت به مواقف الإمام الرضا من حرص على سلامة الإسلام وعقائده من التحريف، شأنه في ذلك شأن آبائه وأجداده عليهم السلام، لذلك اخترت مقولاته التي عنيت بما يأتي ، لتكون مجالاً لهذا البحث، والتي من جملتها:

١. موقفه في مسألة الحروف المقطعة في القرآن الكريم، وعلم المحكم والمتشابه.
٢. موقفه في النهي عن تأويل القرآن بالرأي ، وقوله في (غضاضة القرآن الكريم .
٣. دفاعه عن عصمة الأنبياء عليهم السلام وتصويبه لما ورد في الفكر الإسلامي من مقولات في هذا الشأن .

...Abstract...

The present research paper takes hold of certain Quranic issues that we mentioned in the sayings and speeches of Imam Al-Ridha (Peace be upon him) explicating many a blessed Quranic text and contemplating some of them. Some Quranic texts cast controversy into the Islamic mind for having theories concerned with oneness and prophetic protection that we mentioned in multifarious viewpoints irrelevant to the genuine Mohammedan ideology.

Thus far, the speeches of Imam in this regard, come as arbitrary in proving oneness of Allah and averting atheism or considering Him as one of trinity [the three]. Besides, the Imam rectifies some beliefs; about prophets and disbelief in their protection certain denominations adhered. Consequently, Imam speeches surge into prominence to keep Islam intact and the doctrines from the acts of twisting as his descendents did (Peace be upon them). Some speeches are taken to be the cornerstone of the current research paper:

1. His stance in the cut, separate, letters in the Glorious Quran, and in Al-Muhakim and Al-Mutashabah science.
2. His stance in averting Quranic interpretation under the domain of opinion: as he declares in "In the Glorious Quran"
3. His defense about the prophetic protection (Peace be upon them) and his rectification to the Islamic mind in this concern.

... المقدمة ...

يتناول هذا البحث جملة من القضايا القرآنية التي أخذتها من آراء الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وملاحظه التي فسّر بها الكثير من النصوص القرآنية المباركة التي مَثّل بعض منها إشكالات في الفكر الاسلامي ليس بسبب مما تتضمنه هذه الآيات الكريمة من مسائل، وإنما بسبب من الانحراف الفكري الذي أصيبت به بعض المدارس الاسلامية التي جنح بها سوء التفكير والفهم المغلوط للقرآن الكريم، فضلاً عن الابتعاد عن الثقل الثاني والصنو للقرآن، وهو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعترته الأطهار الذين قال فيهم رسول الله: **إني مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض**. وهذا (الثقل) هو الموضح والمبيّن للقرآن الكريم على امتداد الزمن، وهو المتكفل ببيان مقاصد القرآن ومصاديقه الصحيحة.

ولهذا كان لزاماً على الباحثين والدارسين أن يتكفلّوا بالكتابة عن منهج أئمة أهل البيت عليهم السلام في مختلف الجوانب المعرفية. فاخترت الإمام الرضا عليه السلام، وهو ثامن الأئمة، ليكون انموذجاً لهذه المدرسة الاسلامية العلمية التي أخرجت الناس، ولما تزل تخرجهم من الظلمات الى النور.

وقد جعلت البحث في بيان بعض من (الملاحظ القرآنية) التي وقف عندها الإمام وأفصح عن دلالتها ومعانيها. فانقسم على أربعة مباحث اخترتها بسبب من أهميتها الفكرية، ولما لاحظته من عناية الإمام في الإبانة عنها، مع أني تركت

الكثير من التفاصيل والقضايا القرآنية المهمة التي سنقف عندها في بحث آخر إن شاء الله تعالى. فأما المبحث الاول، فقد جعلته مخصوصاً بمباحث علوم القرآن التي تضمنت ذكر آرائه عليه السلام في (الحروف المقطعة) و (علم المحكم والمتشابه) و (موقفه في النهي عن التأويل بالرأي)، فضلاً عن قوله في (غضاضة القرآن الكريم) ومعناه. واختص المبحث الثاني بدراسة موجزة في بيان أنّ (أئمة أهل البيت هم مصاديق القرآن الكريم) الذين يذكرهم النص الكريم بأوصافهم وخصالهم التي وقف عندها الإمام الرضا عليه السلام غير مرّة رداً، فيما يبدو، على مَن يحاول تطبيق النصوص القرآنية وجرّها الى غير المثال الحقيقي الذي تنطبق عليه.

وعني المبحث الثالث بدفاع الإمام عن الأنبياء والرّسل وإثبات عصمتهم التي نص عليها القرآن الكريم. في حين جعلت المبحث الرابع والأخير في مباحث (التوحيد والعقائد) التي صوّب الإمام الكثير مما فسد منها، وردّ على مَن تبنى العقائد التي تدعو الى تجسيم الله تبارك وتعالى وتشبّهه وتثبت الحد له.

وقد ختمت البحث بجملة من النتائج التي توصلت اليها، مشفوعة بذكر أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت في تدوينه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين...

المبحث الأول

مباحث علوم القرآن الكريم

يتناول هذا المبحث الملاحظ القرآنية التي وردت في كلام الإمام الرضا عليه السلام والتي تصنف، بحسب الدرس القرآني، في ضمن مباحث علوم القرآن الكريم. وفي صدارة هذه المباحث مبحث الحروف المقطعة، والمحكم والمتشابه، ومن ثم نهيه عليه السلام عن التأويل بالرأي، وغضاضة القرآن الكريم وجدّته.

أولاً: الحروف المقطّعة

وهي مجموعة من الحروف الهجائية التي تفتتح بها تسع وعشرون سورة من القرآن الكريم مثل (الم) و (كهيعص) و (طه) وغيرها. وهذه الحروف هي نصف حروف الهجاء العربي.

وقد تحير المفسرون في بيان أصل هذه الحروف ودلالتها عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿الم * ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] حتى تحصّل فيها نيف وعشرون وجهاً، منها ما نقل عن ابن عباس من أن كل حرف من الحروف مأخوذ من لفظ يدل على الخالق جل جلاله وانبيائه، فالالف من كلمة (الله)، واللاّم من (جبريل) والميم من (محمد)[2]. وقيل: بل الالف آلاؤه، واللاّم لُطفه، والميم مَلكه[3]. فضلا عن وجوه أُخر تكفلت المدونات التفسيرية بذكرها[4]. غير أن منهج الإمام

الرضا عليه السلام يختلف عن منهج المفسرين في قراءة هذه الأحرف القرآنية، فهو ينظر اليها نظراً اعجازياً يرتبط بالقرآن الكريم نفسه من حيث كونه نازلاً بلغة العرب الفصحى، بل الأعلى فصاحة، ولهذا قال عليه السلام معلقاً على أمثال هذا الاستعمال القرآني من حروف المعجم قائلاً: **إنّ الله تبارك وتعالى انزل هذا القرآن بهذه الحروف التي يتداولها العرب**، ثم قال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(٥) (٦).

والإمام عليه السلام يشير الى أنّ الله تبارك وتعالى قد أنشأ القرآن الكريم من هذه الأحرف المسمّاة بحروف المعجم التي يعرفها العرب الذين نزل بينهم القرآن ويستعملونها في لغتهم، ولكنهم عاجزون عن أن يأتوا بنص شبيه بالقرآن الكريم، على الرغم من كونه من هذه الحروف التي تمثل المكونات الأساسية للقرآن الكريم.

ولهذا تلا الإمام قوله تعالى ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنّ﴾ للاستدلال على عجز طرفي الخلق (الانس والجن) عن الاتيان بمثل هذا القرآن الكريم ليس على وجه (الصّرفة) التي ادعاها بعض من أنّ الله تبارك وتعالى هو الذي صرف العباد عن مجاراة القرآن والصوغ على مثاله، وإنما على وجه التحدي الذي يمتلك الإنس والجن امكانياته التي منحها الله تعالى لهم، ولكنهم عجزوا عن هذا الضرب من القدرة اللغوية.

أقول: ومن التتّبع التأريخي لهذه القضية القرآنية نجد أنّ الأئمة عليهم السلام قد أكدوا هذه الحقيقة المعرفية لنظرية (الحروف المقطعة) في القرآن الكريم، وهي معرفة العرب لأجزاء التركيب القرآني وأسسه دون القدرة في النسج على منواله، إذ يقول الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السلام في تعليقه على عِلّة افتتاح بعض السور القرآنية

بهذه الحروف في القرآن مرجعاً ذلك الى تكذيب قريش واليهود للقرآن الكريم، ورميهم له بالسّحر، فخاطب الله تعالى نبيه الأكرم بأنّ هذا الكتاب هو من الحروف المقطعة، وهو بلغتكم وحروف هجائها، وذلك على نحو التبكيت والتعجيز، حيث يقول الإمام في معنى قوله تعالى: ﴿الم﴾[٧]. أي يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلته اليك هو الحروف المقطعة التي منها الف ولام وميم، وهو بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إنْ كنتم صادقين[٨].

ثانياً: المحكم والمتشابه

وهما من أهم مباحث علوم القرآن عند العلماء، فقد نص القرآن الكريم تضمنه هذين الأمرين في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبابِ﴾[٩].

وقد اختلف المفسرون في معنى المحكم والمتشابه القرآني، فذهب بعضهم الى أن المراد من الإحكام إتقان القرآن وعدم تطرق النقص والاختلاف اليه، وأنّ المتشابه يعني أنه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز[١٠]. وقيل بل المحكم ما عرف المراد منه بالظهور أو بالتأويل، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام السّاعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور[١١]. ولم يكن أئمة آل البيت عليهم السلام بعيدين عن هذه المسألة القرآنية، فها هو الإمام الرّضا عليه السلام يضع منهجاً علمياً قرآنياً يمكن الاهتداء به الى صراط مستقيم بحسب قول الإمام الذي نصه: **مَنْ ردّ متشابه**

القرآن الى محكمه هُدي الى صراط مستقيم[١٢].

والنص المتقدم يعلّم به الإمام الأمّة أنّ الأصل في القضية هو (المحكم) الذي به تفسير غوامض القرآن الكريم وأسراره التي يجهلها الناس الذين لا يدركون معارف النص الكريم؛ لأنهم ليسوا من الراسخين في العلم الذين استاثروا، بعد الله جل جلاله، بمعرفة تأويل القرآن الكريم. فالرَّاسخون في العلم يعلمون متشابهات القرآن الكريم كما يعرفون محكماته، وهم المخصوصون بشرحها للناس؛ لعلمهم الواسع الذي منحهم الله تبارك وتعالى إياه[١٣].

ولهذا لا تقف حدود منهج الإمام الرضا عليه السلام عند قول من قال: إنَّ الأصل في قراءة قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبابِ﴾[١٤]. هو الوقوف في التلاوة عند كلمة (الله)؛ ويكون الابتداء بـ (الراسخون) دليلاً على عدم استئثارهم بعلم التأويل، وأنّ الله جل جلاله هو المستأثر بذلك وحده. غير أن مصداق الأئمة وتشخيصهم عليهم السلام لمصطلح (الراسخون في العلم) مخصوص بهم وبالنبي محمد صلى الله عليه وآله دون غيرهم من الناس. وبحسب هذا الفهم يكون الأئمة هم المعنيون بمعرفة متشابه القرآن، ومحكمه معرفة تامة، وهم الذين يعلِّمون الناس طريقة تعرف المتشابه القرآني، بوساطة ردّه الى المحكم من آياته.

ولذلك ألمح في قول الإمام الرضا المتقدم إشارة الى منهج التفسير الموضوعي الذي يعتمد جمع جميع الآيات المباركات ذات الموضوع الواحد للخروج بنتائج وافية

عن معاني الآيات القرآنية ودلالاتها، ويشمل هذا المنهج المحكمات والمتشابهات من الآيات المباركة أيضاً بطريقة تفسير كل آية بآية أخرى توضح مجملها ومضامينها القرآنية.

ومما يتعلق بهذه القضية نهيه عليه السلام عن تأويل القرآن الكريم بالرأي، لأنه مما استأثر الله به الراسخين في العلم. يقول الرضا عليه السلام مخاطباً بعض أصحابه: **لا تؤول كتاب الله عز وجل برأيك، فإنّ الله عز وجل يقول:** ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبابِ﴾[١٥][١٦].

وموقف الإمام هذا توكيد لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: **(من قال في القرآن بغير علم، فليتبوّأ مقعده من النار)**[١٧].

ثالثاً: غضاضة القرآن الكريم ودوامه

الغضاضة في اللغة النعومة والحداثة وعدم الانقطاع[١٨]. أمّا غضاضة القرآن، فهي دوامه وتجدده وحداثة عهده حتى كأنّه غير منقطع الأمد لجدته وسرمديته. وقد أشار الإمام الرضا عليه السلام الى أزلية القرآن الكريم وكونه غير مخصوص بزمن دون زمن آخر، محتجاً بإجابة الإمام الصادق عليه السلام لرجل سأله: «ما بالُ القرآن لا يزداد على النَّشْر والدّرس الاّ غضاضة؟» فقال الإمام: **لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناسٍ، فهو في كل زمانٍ جديد، وعند كل قوم غضٌّ الى يوم القيامة**[١٩].

وهذا الكلام يعني أن القرآن الكريم غير مخصوص بزمان أو مكان؛ لأنه رسالة ممتدة للأزمنة والأمكنة كلها لا يخلق بالرّد وكثرة الدّرس، وكل يوم يظهر منه علم جديد أو يفهم منه الناس شيئاً جديداً يساير الزمن الذي هم فيه، بل يتعداه الى اظهار حقائق وغوامض لم تستطع القدرات الإنسانية إدراكها.

ويتضمن حديث الإمام جملة من الأمور تُفهم منه:

أولها: إنّ غضاضة النص المبارك تعتمد في الدرجة الاولى على اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم، وهي اللغة العربية التي اختيرت لهذا النص المقدس بما تحمله من إمكانيات لغوية وأسلوبية وبيانية لا تتوافر عليها أية لغة أخرى، وهذه فضيلة من الفضائل التي اكتسبتها اللغة العربية وتشرفت بها من القرآن الكريم، فأسمهمت من هذا الجانب في غضاضة القرآن وتجدده بما تملكه من امكانيات على مستوى التركيب والشكل والمضمون حتى كأنّ المفردة القرآنية، بل العبارة القرآنية لا يمكن أن تحتمل بديلاً مقترحاً عنها. فكما أنّه لا يمكن وضع يد الإنسان محل قدمه، فكذلك لا يمكن وضع مفردة من مفردات القرآن محل مفردة أخرى؛لأنها نصوص صيغت بإحكام ودقة وحسن اختيار وانتقاء للألفاظ يستحيل التلاعب بها أو تحريكها من مواضعها التي وضعت فيها. وهذا الأمر مرتبط بالمعنى أشد ارتباط.

ثانيها: إنّ الغضاضة القرآنية لا ينقص من شأنها عدم ادراكها وفهمها من الناس، فعلى الناس الارتفاع الى مستوى اللفظ والمعنى الذي تشتمل عليه تعابير القرآن الكريم وتراكيبه اللغوية. فلا ينبغي أنْ يكون القرآن غضاً على مستوى بعيد عن وعي الأمم والشعوب به، وإنما ينبغي عليهم وعلى الدارسين الارتقاء الى مستويات التعبير القرآني لدراسته وبيان خصائصه وميزاته التي لم يلتفت اليها في زمن

ما، أو الُتفِتَ اليها بشكل بعيد عن مراد الله تبارك وتعالى. ولكن بلحاظ الاستعانة بـ (الراسخين في العلم) من أهل بيت محمد ﷺ، على رأي مدرسة أهل البيت عليهم السلام، واتباعهم من العلماء الذين يوظفون مقولات الأئمة في الإبانة عن مضامين النص القرآني المبارك، تكون المسألة أكثر معنى ودلالة مما لو استعين بغيرهم من السياقات الأخرى.

ثالثها: ضرورة أن يتصدى العلماء لبيان المضامين العلمية للقرآن الكريم بشكل لا يبعده عن حيز العلم التطبيقي، ويحصره في زاوية المجال الفقهي التشريعي الذي يعني بمسائل الحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام الشرعية التي تفيد من القرآن الكريم. بل يجب إظهار المزايا العلمية بكل أشكالها من القرآن الكريم ما استطاع العلم الى ذلك سبيلاً، تحقيقاً لمبدأ الغضاضة وعدم الانحصار بالزمان والمكان فحسب.

المبحث الثاني

أهل البيت عليهم السلام هم مصاديق القرآن

يعد أئمة أهل البيت القسم المكمل للقرآن الكريم، وهم ثالثة الأثافي بعده وبعد الرسول صلى الله عليه وآله. وقد ابتعدت الأمة الاسلامية كثيراً عنهم وعن الأخذ بأقوالهم وسننهم التي هي أقوال رسول الله وسننه التي أورثها لهم. متجاوزة بذلك قول النبي الاكرم: **وإني تارك فيكم الثقلين. أولهما كتابُ الله فيه الهدى والنور، فَتَمسكوا بكتابِ الله وخذوا به وأهل بيتي أذكِّركم الله في أهل بيتي**[٢٠].

وقد ربط النبي الاكرم صلى الله عليه وآله هذين الثقلين أحدهما بالآخر، في اشارة الى عدم التفريق بينهما، وضرورة الأخذ بهما معاً، فهما صِنوان لايفترقان من حيث أنهم عليهم السلام يبينون أحكام القرآن الكريم في موارده جميعاً، وهم أعلم به من غيرهم، ولهذا نقلت مدونات الحديث قول النبي الأكرم برواية أخرى نصّها: **إني تاركٌ فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبلٌ ممدود من السّماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يَردا عليَّ الحوض**[٢١].

وتحقيقاً لهذا الأمر من رسول الله، فقد نهج أئمة أهل البيت منهجاً حرصوا فيه على أن يكونوا هم المصداق الأمثل للقرآن الكريم، فما تركوا موقفاً أو مسألة تعرض عليهم بخصوص القرآن الكريم وتفسيره إلاّ وأشاروا الى أنهم في صدارتها. وعلى هذا السبيل سار الإمام على الرضا عليه السلام، الذي نص غير مرّة على أنهم (أهل الذكر)

الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[٢٢].

وقد روي عنه عليه السلام في جوابه عن معنى قوله تعالى المتقدم: **نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون**[٢٣]. وجوابه المتقدم للتعبير القرآني بـ (أهل الذكر) الذي صُرف مصداقه الحقيقي الى دلالات أخرى شرّق المفسرون وغرّبوا في تحديدها، حتى ذهبوا الى أنّ المراد بهم أهل الكتاب وعلماء الأخبار[٢٤]، وقد حرص الإمام الرضا عليه السلام على تصحيح ما ذهب اليه المسلمون في المراد بـ (أهل الذكر)، فهم ليسوا أهل الكتاب ولا النصارى، وذلك في مجلس الحوار الذي جرى عند (المأمون) لّما قال بعض العلماء الحاضرين إنّ المعني بـ (أهل الذكر) هم اليهود والنصارى، فردّ الإمام هذا الوجه قائلاً: **سبحان الله، وهل يجوز ذلك؟ إذن يدعونا الى دينهم ويقولون إنّه أفضل من دين الإسلام**[٢٥]، ثم قال عليه السلام محتجاً بآيات أُخر: **الذّكر رسول الله،ونحن أهله، وذلك بيّن في كتاب الله عز وجل حيث يقول في سورة الطلاق:** ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً﴾[٢٦]. **فالذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن أهله**[٢٧].

والظاهر من النص أنّ الإمام يريد انتزاع الفكرة الخاطئة من أذهان هذه الفئة من العلماء، ليظهر لهم أنّ الصواب في (أهل الذكر) عدم انحصارها في أهل الكتاب وغيرهم، وإنما تتجاوز هؤلاء ليكون في رأسها وصدارتها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآل بيته الذين جعلهم الله تبارك وتعالى صنو القرآن والثقل الثاني بعده تمهيداً، فيما يبدو،

لفكرة أنّ الأئمة عليهم السلام هم المرجع بعد النبي في كل عصر، وهم الذين يتوجب وضعهم في صدارة الأمة مع الأخذ بمقولاتهم في مجال التشريع والتطبيق القرآني.

وقد أشار بعض المفسرين المعاصرين الى أن المراد بكلام الإمام هو عدم الرجوع الى أهل الكتاب على مر العصور والأيام، وأنّ عصر الإمام الرضا عليه السلام لابد من الرجوع فيه الى الإمام على أساس أنه مرجع علماء الإسلام ورأسهم[٢٨]. وأزيد على ذلك بأنّ في كلامه عليه السلام إشارة الى أن لكل أمة إماما منهم عليهم السلام يتوجب الرجوع اليه في المسائل جميعها، ولاسيما في القضايا القرآنية.

ولهذا روي عن الإمام الرضا عليه السلام نفسه عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه **يُدعى كل أُناسٍ بإمام زَمَانِهم، وكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم**[٢٩].

أقول: وكثيراً ما كان الإمام الرضا يفسر الآيات المباركات التي ترد فيها مفردات تحتمل أن يراد بها غيرهم عليهم السلام أو يتوجه المسلمون بها الى غير أهل البيت غلطاً في بيان مصاديقها أو عمداً، لصرفها عن الأئمة بدوافع سياسية وتفضيلية أخرى. ولهذا نلحظ حرصه عليه السلام في بيان أنهم (حجج الله) و (ورثة الكتاب) و (العروة الوثقى). فقد ذكر المؤرخون ما ذهب اليه العلماء في مجلس (المأمون) لما سألهم عن (المصطفين) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[٣٠]. فقال الحاضرون: إنهم أمّة محمد بكاملها[٣١].

في حين ذهب الإمام الى أنهم العترة الطاهرة دون غيرهم، واستدل عليه السلام على ذلك باستدلال عقلي علمي قرآني ذاهبا الى أنه لو أراد جل جلاله بهذه الآية الكريمة جميع المسلمين، كما قالت العلماء، لحُرِّمت النار على كل مسلم، وإنْ فعل ما فعل؛ لأنه

تبارك وتعالى لا يعذب أحداً اصطفاه، والثابت في ضرورة الدّين خلاف ذلك، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره أيضاً[٣٢].

أقول: وما ذهب اليه الإمام الرضا عليه السلام يتّسق مع القرآن الكريم الذي لم يصطفِ أحداً ما لم يكن (مُخلَصاً ومخلِصا) له بكل ما تشتمل عليه مفردة (الاخلاص) من معنى، مع لحاظ أن يكون هؤلاء المصطفون مطهرين من الرجس بكل ما تحمله كلمة (الرجس) من دلالات أيضاً. وبهذا يثبت أنّ أهل البيت هم (المصطفون) الذين عناهم الله تبارك وتعالى في الآية المباركة. ولم يخرج الإمام الرضا في بيانه للآية الكريمة عما ذهب اليه أجداده من أئمة أهل البيت في هذه المسألة؛ فقد روي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام قولهما في تفسير الآية المباركة سالفة الذكر: (**هي لنا خاصة، وإيّانا عنى**)[٣٣].

أهل البيت هم حجج الله وشهداؤه في البرية والعروة الوثقى

وهذه مسألة قرآنية أيضاً، فقد عرض المفسرون حديثاً للإمام الرضا عليه السلام في بيان قوله تعالى: ﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٣٤]. يقول فيه الإمام: (**نحن حُجج الله في خلقه، ونحن شهداء الله وأعلامه في بريّته**)[٣٥]. وحديثه يتضمن الإشارة الى أمور اختص بها أهل البيت عليهم السلام دون سواهم؛ الأول منها كونهم حجج الله في الخلق، فهم الذين يحتج بهم الخالق تبارك وتعالى على خلقه، لأنهم الشهداء المطّلعون على أحوال العباد

بتخويل من الله جل جلاله، ولعل هذا هو معنى الشهادة في قوله تعالى آنف الذكر، فضلاً عما توحي به مفردة الشهادة من دلالات ومنها (الشهادة العمليّة) في كونهم انموذجاً للناس وقدوة لهم في أقوالهم وأفعالهم، بوصفهم مقياساً للسّمو والفضل بين الأمم جميعاً[٣٦].

أما الدلالة الثانية لقول الإمام عليه السلام، فهي اختصاصهم في كونهم الشهداء على الخلق شهادة عملية تطبيقية، وشهادة (اطّلاعية) يعرف منها كونهم مطّلعين على الخلائق وتعرض عليهم أعمال العباد بإذن الله تبارك وتعالى. أما الدلالة الثالثة، فهي كونهم أعلام البريّة، وهي إشارة منه عليه السلام الى أنهم الشواخص البارزة التي يهتدي بها كل انسان ضالٍ أو غير ضالٍ يبصرهم ويرى أعمالهم ويسمع أقوالهم، ويكون مستعداً للاقتداء بهم والانضواء تحت لوائهم في الورود على الله جل جلاله.

ومما يتناسب مع قول الإمام المتقدم في اطلاعهم عليهم السلام على أعمال الأمة بطرائق خاصة كلامه عليه السلام الذي أجاب به بعض الناس الذي طلب اليه الدعاء له ولأهل بيته: **أَوَلَسْتُ أفعل؟ والله إنّ أعمالكم لتعرض عليّ في كل يوم وليلة**[٣٧]. فاستعظم الرجل من ذلك، فأجابه الإمام مستدلاً بكتاب الله: **أما تقرأ كتاب الله عز وجل: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[٣٨]. ثم قال: **هو والله علي بن أبي طالب**[٣٩].

وفي كلام الإمام مباحث متعددة في صدارتها تأكيده على نظرية (عرض الأعمال) التي تعد من أهم الفروع في عقيدة (الإمامية الإثني عشرية)، فضلاً عن الإشارة الى قرآنية هذه الفكرة التي مصدرها كتاب الله، واختصاص هذا العرض للأعمال بالله جل جلاله، وبالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، والمؤمنين الذي خصّ منهم الإمام الرّضا الإمام

عليا عليه السلام، بوصفه المثال الفريد للمفردة المتقدمة، ومن ثمَّ الأئمة من ذريته، ولهذا أوردت الآية المباركة مفردة (المؤمنون) بصيغة الجمع كما يبدو تخصيصاً لهم عليهم السلام.

ومما يستدل به على قول الإمام الرضا في هذا التفسير والبيان للآية المباركة، وعدّه الإمام علياً هو المقصود بكلمة (المؤمنون)، آية (الولاية) التي نزلت في الإمام علي يوم تصدّق بخاتمة وهو راكع التي يقول فيها القرآن الكريم: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٤٠]. فضلاً عما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في قوله: **علي سيّد المؤمنين**[٤١]، وبهذا يكون عليه السلام مصداقاً ومثالاً مميزاً لمفردة (المؤمنون) الواردة في القرآن الكريم وفي كلام الإمام الرضا عليه السلام.

أقول: ويلحظ أنّ الإمام الرضا قد أبان عن معنى كلمة (التقوى) و(العروة الوثقى) في القرآن الكريم بأن خصّها بأهل البيت عليهم السلام. فقد ورد عنه قوله: **نَحْنُ كلمة التقّوى والعُرْوة الوُثْقى**[٤٢]. وذلك، فيما يبدو، تفسير لقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[٤٣].

وتختلف رؤية الإمام الرضا عليه السلام في بيان معنى (كلمة التقوى) عن رؤية المفسرين الذين ذهبوا الى أن المراد بـ (كلمة التقوى) في القرآن الكريم هي (بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله)[٤٤]. وقال بعضهم إنها كلمة الشهادة والوفاء بالعهد[٤٥]. في حين جعلها بعضهم على نية حذف مضاف اليه تقديره: كلمة أهل التقوى[٤٦]. ولكنّ الإمام الرضا عليه السلام، وعلى عادته في تقويم الأفكار التي ترغب

في صرف القرآن الكريم عن معانيه ومصاديقه الحقيقية يتوجه الى جعل أهل البيت هم الأنموذج الذي يريده الخطاب القرآني، بحيث جعلهم كلمة التقوى، فضلاً عن كونهم العروة الوثقى مشيراً بذلك الى قوله تبارك وتعالى: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لاَ انْفِصامَ لَها وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤٧]، أو الى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[٤٨]. فهم عليهم السلام الحبل الوثيق ذو العرى المأمونة التي لا انفصام لها ولا انقطاع. وذلك على سبيل التمثيل بحال من تدلّى من شاهق، فاحتاط لنفسه بأوثق عروة من عرى الحبل المتين المأمون الانقطاع، حسبما يذكر الزمخشري[٤٩].

وليس ببعيد قول الإمام الرضا عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله الذي جعل فيه القرآن وأهل البيت حبلاً محدوداً من السماء الى الأرض في حديث الثقلين، فهما معاً العروة الوثقى التي لا انفصام لها.

وقد لاحظت أنّ الإمام الرضا يعتمد مبدأ الإشارة الى أهل البيت، وهو منهم في كثير من النصوص القرآنية التي ترد فيها مفردات يصرفها بعض المسلمين عن مصداقها الحقيقي الأمثل. فنجده يفسّر مفردة (الأمانة) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[٥٠]. بـ (الولاية) قائلاً: **الأمانة الولاية، من ادَّعاها بغير حقّ كفر**[٥١]. فهو عليه السلام يفهم من مفردة (الأمانة) القرآنية معنى أبعد من دلالالتها المعجميّة التي يتداولها المعجميون؛ ذاهبا بها الى كونها ولاية اهل البيت عليهم السلام والايمان بهم في كونهم أولياء رسول الله صلى الله عليه وآله، والواجب على الأمة موالاتهم؛

لأنهم المخصوصون بها كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **لا يقاس بآل محمد عليهم السلام من هذه الامة باحد...هم أساس الدين وعماد اليقين... ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة**[٥٢]. والولاية، بحسب مذهب أهل البيت، معناها فرض طاعتهم (عليم السلام) لأنهم قادة الأمة ورؤساؤها في الدنيا والآخرة.

وهذا الوجه الذي فسّر به الإمام الرضا مفردة الأمانة بـ (الولاية) قرآني المنشأ. و بعبارة أخرى أن الإمام لم يطلق هذا المبنى من التفسير منصرفاً عن القرآن الكريم، فالقرآن نفسه خصّ الولاية بالله وبرسوله وبأمير المؤمنين علي عليه السلام في غير موضع، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾[٥٣]. وهذه الآية المباركة مخصوصة بعلي عليه السلام كما تذكر المدونات التفسيرية[٥٤]. ومن الملاحظ أنّ المدونات الخاصة بعقائد الإمامية تؤكد كثيراً عقيدة (الولاية) التي ترد كثيراً في أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام. فقد روي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام حديثاً في الأسس التي بُني عليها الإسلام، فعد منها (الولاية) لأهل البيت. يقول الإمام عليه السلام: **بُني الإسلام على خمسة دعائم: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت الحرام، والولاية لنا أهل البيت**[٥٥].

أقول: وقد لاحظت أن عناية الإمام الرضا عليه السلام بهذهِ القضية كانت عناية مميزة، حتى أنّه فسّر مفردات قرآنية متعددة دالاً بها على (الولاية). وفي ذلك دليل على عنايته في تصويب الأفكار السائدة في عصره التي كانت تدعو الى الابتعاد عن ولاية الأئمة، فضلاً عن ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام.

المبحث الثالث

... عصمة الأنبياء ...

العصمة في اللغة المنع[٥٦]. وعصمة الله للعبد مَنْعه من فعل الموبقات والوقاية منها[٥٧]. أما العصمة في الاصطلاح، فهي (لطف يفعله الله تعالى بالمكلف، بحيث يمتنع منه وقوع المعصية وترك الطاعة مع قدرته عليها)[٥٨]. والعصمة بهذا المعنى أعلى درجات التقوى والابتعاد عن الشهوات[٥٩]. وقد اختلفت المدارس الاسلامية في العصمة وجواز اشتراطها أو وجوبه في الأنبياء والأئمة عليهم السلام الذين يختارهم الله جل جلاله ويبعثهم للأمم مبشرين ومنذرين.

ويذهب المسلمون من غير الإمامية الى عدم اشتراط العصمة في الأنبياء والرسل قبل اختيارهم للرسالة وفي أثنائها. ولهذا نجد المتون التفسيرية تحفل بالكثير من الأفكار التي ربّما تسيء الى مقام الأنبياء والرسل وتخرجهم عن الحال التي ينبغي أن يكونوا عليها، بوصفهم مبعوثين الى أمم تصدر منها الكثير من الأعمال والأقوال غير المقبولة، فليس من المعقول و المقبول أن يتصرف هؤلاء الأنبياء بمثل تصرفات الرعية أو العوام من الناس.

والظاهر أنّ هذهِ المقولات التي يذهب اليها سائر المسلمين راجعة في الأصل الى ظواهر القرآن الكريم الذي وردت فيه جملة من الآيات الكريمة التي فُهم منها جواز وقوع الخطأ أو صدوره من الأنبياء. وقد تصدّى أئمة أهل البيت عليهم السلام لهذه الافكار

البعيدة عن الصواب، ونَزّهوا أنبياء الله ورسله وأنفسهم عن هذه المسائل. وأخذ عنهم تلاميذهم هذه العقيدة ونظّروا لها وصححوا الأفكار ولوازمها على الأنبياء والأوصياء، وربطوا ذلك بالجانب العقلي الذي يمنع ارتكاب من اصطفاهم الله تبارك وتعالى للقيام بمهام الدعوة اليه من القيام بما يخالف مفاهيم هذا الاختيار. فقد جوّز بعض أئمة المسلمين من الفرق الإسلامية وقوع كل ذنب من الأنبياء صغيراً كان أو كبيراً حتى الكفر، في حين فصّل بعض المسلمين في ذلك ولم يصل بهم الحد الى تجريدهم الانبياء من العصمة(٦٠).

في حين أنّ الإمامية يذهبون الى عصمة الانبياء مطلقاً قبل البعثة وفي أثنائها. والذي يهم ههنا هو مواقف الأئمة عليهم السلام ومقولاتهم فيما يخص (عصمة الأنبياء)، فقد سخّر أهل البيت أنفسهم للذبَّ عن الأنبياء وردّوا الكثير من الأقوال التي زعم أصحابها جواز وقوع الكبائر من الرسل.

ومن الأئمة الذين تصدّروا هذا الاتجاه الإمام الرضا عليه السلام الذي دافع كثيراً عن مبدأ عصمة الأنبياء وصواب مواقفهم وأفعالهم التي يذكرها القرآن الكريم. ومن ذلك إجابته عن سؤال المأمون لمّا سأله عن قوله في عصمة الأنبياء قائلاً: يابن رسول الله: أليس من قولك إنّ الأنبياء معصومون؟ قال عليه السلام: بلى. قال: فما معنى قول الله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾(٦١). قال الرضا عليه السلام: **هذا مما نزل بإيّاكِ أعني واسمعي بإجارة خاطب بذلك نبيّه وأراد بذلك أمتّه. وكذلك قوله:** ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٦٢). **وقوله تعالى:** ﴿وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾(٦٣). فقال المأمُون: صدقت يابن رسول الله(٦٤).

والنص المتقدم يوضح موقف الإمام في قضية العفو عن النبي الوارد في القرآن الكريم، وهي القضية التي شغلت الفكر الاسلامي، فضلاً عن المأمون نفسه، فالآية في ظاهرها توحي بوقوع الخطأ أو الزلل من النبي الأكرم،وحاشاه؛ لأن مفردة (عفو) تدل على الصفح والتجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه حسبما يقول اللغويون(٦٥).

ولكن الإمام عليه السلام وجّه الآية توجيهاً آخر جاعلاً إياها من باب أنّ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله والمقصود به الناس من أمته الذين يجوز عليهم ارتكاب مثل هذه الافعال التي يؤاخذهم الله بها. فوجه الإمام النص الكريم توجيهاً ينأى به عن نسبة الخطأ الى النبي الأكرم؛ لأنّ سياق الآية المباركة سياق عتاب خاطب فيه التعبير القرآني النبي بـ (الضمير) في (عَنْك)، تفخيماً لشأنه صلى الله عليه وآله وتنزيهاً له عن جواز وقوع مثل هذه الأمور عليه، مصدراً ذلك بلفظ (العفو) تحقيقاً وتصديقاً لوقوعه من الله في شأن النبي الخاتم؛ لئلا يُشْعر بأنَّ الله تعالى يؤاخذ نبيه بفعله، ولكي لا يحس المتلقي أنّ في الآية ضرباً من التقريع والغضب عليه صلى الله عليه وآله. وهذا الأمر يتناسب في مضامينه مع توجيه الإمام الرضا للآية المباركة، فالأمر في خطاب الأمة من خلال النبي أمر إرشادي له صلى الله عليه وآله بأن لا يفعل ما كان الأولى له أن لا يفعله، مع كون هذا الفعل الذي قام به النبي غير محظور عليه فعله، ولكن الأولى به أن لا يفعله(٦٦).

وثمة وجه آخر يمكن أن تحمل عليه الآية المباركة بشكل يمكن معه النأي عن نسبة الخطأ الى النبي الأكرم، فقد ذهب بعض المفسرين الى أنّ قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ﴾ استفتاح للكلام، فهو كقول القائل في خطاب شخص ما: أصْلحكَ الله وأعزّك الله، فلم يكن للنبي صلى الله عليه وآله ذنب يعفى عنه(٦٧).

ويذهب بعض المفسرين الى وجه آخر يجيز نسبة الخطأ الى رسول الله، وعندهم أنّ الله تعالى كنّى بـ ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ﴾ عن الجناية على أساس أن (العفو) رديف لها. **ومعنى الآية**: مالكَ أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم،وهلاّ استأنيت بالإذن حتى يتبيّن لك من صدق في غدره ممن كذب فيه[٦٨].

أقول: ومثل هذا الوجه في نسبة الأخطاء الى النبي ﷺ وغيره من الأنبياء يتجاوز الحد في وجوب احترامهم وتصويب أفعالهم التي يقومون بها؛ لأنهم أهل للتقوى وانموذج للطاعة، فليس من المعقول أن تصدر منهم المخالفات التي تمتنع في العادة على من هم أقل منهم شأناً ومنزلة.

فالعصمة ضرب من التمسك بحبل الله تبارك وتعالى والالتجاء اليه وإجابة أوامره وترك نواهيه، وتكريم للنفس عن الوقوع في المعاصي مع القدرة عليها. ولهذا ركز أئمة أهل البيت عليهم السلام على عصمة الانبياء، فضلاً عن عصمتهم هم عليهم السلام، فحين سئل الإمام زين العابدين عليه السلام عن معنى أن يكون الإمام معصوماً، فقال: **هو المعتصم بحبل الله**[٦٩]. وقريب من ذلك ما أجاب به الإمام الباقر بعضهم قائلا: **المعصوم هو الممتنع بالله عن جميع محارم الله**[٧٠].

وأقوالهم هذه عليهم السلام تؤيد أنّ قوة العقل التي يتمتع بها الأنبياء والأوصياء من الأئمة تتجاوز شهواتهم وتغلبها، فلا تُغلب عند ذاك عقولهم على المعاصي مع كونهم قادرين عليها. ولابد من الإشارة الى أنّ المراد (بحبل الله) في حديث الإمام زين العابدين عليه السلام هو القرآن الكريم، فضلاً عن العترة الطاهرة، فهذان العنوانان لازمان مهمان من لوازم خصال المعصوم أو الذي يتدرج في مراتب العصمة حتى يصل الى قمتها.

ونجد نظائر كثيرة لعناية الإمام الرضا عليه السلام بنفي وقوع المعاصي من الأنبياء، ومنها دفعه الشبهة التي وقع فيها الناس في همَّ يوسف عليه السلام بـ (زليخة)، إذ سأله المأمون قائلاً: ألا تقولون إنّ الأنبياء معصومون؟ فقال الإمام: بلى. فقال فما تفسير هذهِ الآية: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٧١]. فقال الإمام عليه السلام: **لقد همت به، ولولا رأى برهان ربّه لهم بها كما فعلت، لكنه كان معصوماً، والمعصوم لا يهمّ بذنب ولا يأتيه**. فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن[٧٢].

والإمام عليه السلام يفهم من الهَمَّ، كما يبدو من كلامه، أنه الهَمّ بارتكاب الفعل كما همّت (زليخة) بذلك، ولكنه يصرف هذا النوع من الهمّ بالفعل عن الحدوث، بل عن الوقوع في نفس يوسف والخطر في ذهنه بنوع من العلاج الالهي لذلك، وهو وجود (برهان ربّه) في نفسه الذي رآه يوسف على نحو يمنعه من القيام بالفعل المحرم.

وهذا البرهان هو العصمة التي وجدت في نفسه ووقعت في نظره الذي أبصر به حقيقة طاعة الله تبارك وتعالى ومخالفة هوى النفس. فجاء تأويل الإمام لظاهر النص القرآني لائقاً بحال النبي يوسف عليه السلام الذي ابتعد عن مواطن الريبة مؤشراً التفكر في عقاب الله جل جلاله وغضبه عليه فيما لو تبادر الى ذهنه وهَمّ شارعاً بارتكاب تلك الفعلة.

وهذا التوجيه يسوّغ لنا تقديم الإمام الرضا لتعبير (**ولولا أنْ رأى برهان ربّه لهمَّ بها كما همّت**)، مفسراً عبارة (برهان ربّه) بـ (العصمة) التي يتحلى بها يوسف الصدّيق عليه السلام. وهذا الاتجاه الذي ذكر يتناسب مع ما ينقله الإمام الرضا نفسه عن

الإمام الصادق عليه السلام بأنّ همَّ يوسف يختلف عن هَمِّ (زليخة)؛ لأنها إنما همّت بأنْ تفعل القبيح، وهمَّ بأن لا يفعله. يقول الإمام الرضا عليه السلام: **لقد حدثني أبي عن أبيه الصادق عليه السلام أنّه قال: همّت بأن تفعل، وهمَّ بأن لا يفعل**(٧٣).

أقول: وثمّة الكثير من الآيات القرآنية التي وجّه الإمام الرضا عليه السلام دلالتها على غير ما تفهمه الفرق الاسلامية الأخرى فيما يخص الأنبياء تحفل بها المدونات الإمامية(٧٤)، ولعلنا نكتفي بما ذكر فيما سلف في الإبانة عما يتبناه مذهب أهل البيت من نظر بخصوص عصمة الأنبياء.

المبحث الرابع

التوحيد والعقائد الإسلامية

وقد شغلت هذه المباحث الفكر الاسلامي، ودارت حولها الكثير من السجالات والمناظرات الفكرية، وانقسمت الأمة الاسلامية في عقائدها انقسامات متعددة حتى بات القول في بعض هذه الأفكار ضرباً من الكفر والخروج عن وجوه (التوحيد) الذي يعد الأصل الأول من أصول الدين عند المسلمين.

وقد دأب أئمة أهل البيت عليهم السلام على توحيد الله تبارك وتعالى والذّب عن (أحديته) التي لم يشاركه فيها غيره، وقاموا بجهود كبيرة في سبيل تصحيح الأفكار التي سادت في أذهان الناس؛ رغبة منهم في ترسيخ القيم والموازين القرآنية التي فرضها الله تعالى في كتابه الكريم. وكان الإمام الرضا عليه السلام واحداً من أهل البيت الذين تصدّوا لهذه الافكار التي نذكر منها:

١) عقيدة التثنية والتثليث

وهي إحدى العقائد التي اختص بها النصارى الذين يجعلون من المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ابناً لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وعندهم أنّ الله روح القدس اله واحد. وأنّه (جل جلاله) متحد ومتكون من ثلاثة: (الأب والابن وروح القدس)، وهؤلاء الثلاثة إله واحد في فكر هؤلاء[٧٥].

وقد وقف الإمام الرضا عليه السلام بوجه هذا النوع من الشرك بالله تبارك وتعالى، متخذاً من القرآن الكريم دليلاً على نفي هذا التثليث المنكر. فقد روت المدونات التأريخية وكتب الأخبار حوار الإمام مع (الجاثليق)، وهو رأس الأساقفة من النصارى الذي حاجَّه الإمام في مجلس المأمون. فقد قال الإمام في حوار طويل سائلاً الجاثليق بقوله: **يا نصراني، والله إنّا لنؤمن بعيسى الذي آمن بمحمد** صلى الله عليه وآله، **وما ننقم على عِيسْاكم شيئاً إلاّ ضعفه وقلة صيامه وصلاته**. قال الجاثليق: أفسدتَ والله علمك وضعّفت أمرك... قال الرضا عليه السلام: **وكيف ذلك؟** قال الجاثليق: من قولك: إنّ عِيْسَاكم كان ضعيفاً قليل الصيام قليل الصلاة، وما أفطر عيسى يوماً قط ولا نام بليلٍ قط، وما زال صائم الدهر، قائم الليل. قال الرضا عليه السلام: **فَلِمَنْ كان يصوم ويصلي؟!**. فخرس الجاثليق وانقطع[٧٦].

لقد أراد الإمام من حواره هذا استدراج النصراني الى الإقرار بكون عيسى عليه السلام نبياً لا يعبد إلاّ الله تبارك وتعالى؛ ليفند بذلك مقالتهم التي تقوم على عدَّ المسيح ابناً لله تبارك وتعالى. وهي المقولة التي نفاها القرآن الكريم وعرّض بأصحابها وكفرهم بسبب ما ذهبوا اليه من أقوال تنافي وحدانية الله جل جلاله. فقال تعالى على لسانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ﴾[٧٧]. وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾[٧٨]. وقال ايضاً: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[٧٩]. ومن ثَم أنكر الله تبارك وتعالى على أهل الكتاب غلوهم في الدين وموقفهم من المسيح الذي

هو رسول الله وكلمته التي القاها الى مريم ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾[٨٠].

وبهذا يكون الإمام الرضا عليه السلام قد صحح أسوء فكرة تقوم عليها العقيدة النصرانية معتمداً ضربين من الأدلة؛ الأول الدليل العقلي، والثاني الدليل القرآني الذي سَرَد فيه الله جل جلاله المراحل التي مرّ بها اتباع عيسى عليه السلام في عدّه ابناً لله الى تنزيهه من هذه الفرية، واثبات كونه عبداً من عباده الذين اختارهم ليكونوا من المرسلين.

٢) نفي الصفات الحادثة عن الله تبارك وتعالى

فقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام جوابه لبعض من سأله أنّ قوماً يقولون: إنّ الله عالم بعلم، وقادر بقدر، وحي بحياة وقديم بقدم، وسميع بسمع. فقال عليه السلام: **مَنْ قال بذلك ودان به، فقد اتخذ مع الله آلهة اخرى، وليس من ولايتنا في شيء.** ثم قال: **لم يزل الله سبحانه عليماً قادراً حياً سميعاً بصيراً لذاته، تعالى عما يقول المشركون والمشبهون علواً كبيراً**[٨١].

ويرد الإمام هنا على مذهب وعقيدة شاعت بين فرقة من المسلمين من المشبَّهة الذين يجسمون الله تعالى ويعدّونه جسماً يتصف بصفات الحدوث التي يتسم بها المخلوقون، ولهذا كان ردّه عليه السلام حاسماً في نفي الصفات عن الحق جل جلاله فأثبت لمن يدعي ذلك الشرك والتشبيه، حتى أنه أخرجهم من ولاية أهل البيت عليهم السلام.

والإمام الرضا عليه السلام يبيّن للأمة الاسلامية ضرورة نفي الصفات عن الله تعالى ليكون توحيدهم توحيداً حقيقياً. وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام: **أول الدِّين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكما توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جَزّأه فقد حدّه، ومن حدّ،فقد عدّه**[٨٢]. وهذا هو الأصل في التوحيد الذي تسير عليه مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ولهذا نجدهم عليهم السلام يسعون الى تنزيه الله عن كل ما لا يليق به من صفات، ويوجهّون النصوص القرآنية المباركة التي تشتمل في ظاهرها على نسبة المكان والزمان الى الله تعالى توجيهاً صائباً يبعدها عن الشبهات التي تهفو اليها قلوب المشبّهة. فقد روى الشيخ الصّدوق سؤال المأمون للإمام عن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٨٣]. فقال عليه السلام: **إنَّ الله تبارك وتعالى خلق العرش والماء والملائكة قبل خلق السموات والأرض،فكانت الملائكة تستدل بأنفسها وبالعرش وبالماء على الله عز وجل، ثم جعل عرشه على الماء، ليظهر بذلك قدرته للملائكة، فتعلموا أنه على كل شيء قدير، ثم رفع العرش بقدرته ونقله وجعله فوق السموات السبع والأرض في ستة أيام، وهو مستولٍ على عرشه وكان قادراً على أن يخلقها في طرفة عين، ولكنه تعالى خلقها في ستة أيام، ليظهر للملائكة كمال خلقه منها شيئاً بعد شيء فيستدل بحدوث ما يحدث على الله تعالى مرة بعد مرّة. ولم يخلق الله العرش لحاجة به اليه؛ لأنه غني عن العرش وعن جميع ما خلق، لا يوصف بالكون على العرش؛ لأنه ليس**

بجسم تعالى عن صفة خلقه علواً كبيراً[٨٤]. ويضع الإمام بحديثه هذا قاعدة يمكن بها بيان معنى عرش الله تبارك وتعالى الذي يرد ذكره في القرآن الكريم؛ فيفهم من كلامه أنّ العرش هو قدرة الله جل جلاله ومكان استيلائه على السماوات والأرض ومحل عظمته التي لا ينازع فيها ابداً.

٣) الجبر والاختيار (التفويض)

وهي من المسائل الفكرية الكبيرة التي شغلت الأمة الاسلامية مدة من الزمن، ولاسيما في القرن الاسلامي الأول؛ إذ تصدى المتكلمون من المسلمين الى بيان الأساس في نشأة أفعال العبد الصالحة منها والطالحة، وهل هي منه أو من الله تعالى؟. وتذكر المدونات الخاصة بالفرق الاسلامية أنّ فكرة الصراع بين (الجبر والاختيار) قد دخلت تاريخ الإسلام وانتشرت بين المسلمين عن طريق الذين دخلوا الى الإسلام من الديانات الأخر؛ إذ كانوا يحاولون دَس الشبهات بين المسلمين وخلق حالة من الاضطراب الفكري في الأذهان[٨٥].

وقد تحمّس الكثير من الفلاسفة المسلمين والمتكلمين لمسألتي (الجبر والاختيار) واختارت بعض الفرق الاسلامية القول بالجبر في محاولة منها لتسويغ أفعال المنتمين اليها وإظهار أنّ أفعالهم وتصرفاتهم ليست منهم، وإنما هي من الله خالق كل شيء ولا دخل للعباد بأفعالهم تلك. وبهذا الوجه يكون الله تعالى قد أجبر عباده على ارتكاب كل شيء قبيحاً كان أو صحيحاً.

وتعرّف المدونات الخاصة بالفرق الاسلامية مصطلح (الجبرية) مرجعة إياه الى (الجبر)، ومعناه نفي الفعل حقيقة عن العبد واضافته الى الرّب تعالى شأنه[٨٦].

ويعد الجعد ابن درهم (ت ١٢٨هـ) من أوائل الذين دعوا الى هذه الفكرة في الإسلام وبثها بين المسلمين. وكان الجعد يسكن الشام، وهو مولى لبني الحكم، ويتصل بجماعة من اليهود فأخذ منهم فكرة القول بالجبر، ولازم الأمويين وتولى تربية أبنائهم، وكان مقرباً من خلفائهم ومحاطاً بعنايتهم. وينسب اليه القول بالكثير من الشبهات والمقولات الخارجة عن توحيد الله جل جلاله، وعنه أخذت مقولة خلق القرآن، وأن الله تعالى لم يتخذ ابراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، وهو أول من حفظت عنه مقالة التعطيل في الإسلام، وقد وصفته كتب التراجم بأنه مبتدع ضال أخذ عنه القول بخلق أفعال العباد[٨٧]. وقد اقتص منه خالد بن عبد الله القسري والي الكوفة لدى هشام بن عبد الملك يوم الأضحى[٨٨].

وقد تصدى أئمة أهل البيت عليهم السلام لهذا الضرب من الأفكار المنحرفة التي أشاعها (الجعد بن درهم) واتباعه، ووقفوا منها مواقف مانعة مصححة؛ ليزيلوا الشبهات التي تعرضت لها العقيدة الاسلامية. فظهرت عندهم نظرية (الأمر بين الأمرين) التي أوجدها الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في مقولته التي أجاب بها سؤال من سأل عن أفعال العباد وهل هم مجبورون على أفعالهم أو مخولون تخويل تفويض؟. فقال عليه السلام: **لا جَبْرَ ولا تَفْويضَ، ولكن أمر بين أمرين**[٨٩].

وهذا الحديث ينفي نفياً قاطعاً أنّ يكون الله تبارك وتعالى قد أجبر الناس أو أكرههم على أفعالهم، كماهي الفكرة التي تذهب اليها فرقة (الجبرية) التي تحاول تسويغ الأفعال السيئة التي يقوم بها الناس أو الأمراء والخلفاء من قتل وانتهاك للحرمات باسم الدين واسم الله، على نية أنّ أفعالهم مخلوقة وموضوعة فيهم بقدرته تعالى، وأنه هو الذي أجبرهم على فعلها. فتعالى الله عمّا يصفون.

إنّ هذا الحديث ينفي نفياً قاطعاً أنْ يكون الله تبارك وتعالى قد فوّض العباد تفويضاً مطلقاً للقيام بأيِّ شيء دون أن يكون له سلطة على المخلوقين.

غير أن مدرسة أهل البيت عليهم السلام اختارت القول الفصل بين هذين المذهبين. وقد أبان الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام فكرة الجبر والتفويض والأمر بين الأمرين، لمّا سئل عن ذلك، فأجاب قائلاً: **مَن زعم أنّ الله يفعل أفعالنا ثم يعذّبنا عليها، فقد قال بالجبر، ومن زعم أنّ الله فوّض أمر الخلق والرزق الى حججه عليهم السلام، فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك**. فقلت له: يابن رسول الله فما أمر بين أمرين؟ فقال: **وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به وترك ما نُهوا عنه**. فقلت: فهل لله عز وجل مشيئة وإرادة في ذلك؟ فقال: **أما الطاعة فإرادة الله ومشيئته فيها الأمر بها والرضا لها والمعاونة عليها، وإرادته ومشيئته في المعاصي النّهي عنها والسّخط والخذلان عليها**. قلت فلله عز وجل فيها القضاء؟ قال: **نعم. ما من فعل يفعله العباد من خير وشر الاّ ولله فيه قضاء**. قلت: فما معنى هذا القضاء؟ قال: **الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة**[٩٠].

والإمام عليه السلام يظهر للمخاطب أنّ مسألة الأمر بين الأمرين مرتبطة بطاعة الانسان لله تبارك وتعالى من خلال إتيان ما أمره به وترك ما نهي عنه بمشيئة الله وإرادته، فإنّه تعالى يُعين العبد ويهيئ له من أمره رشداً إذا عزم على تنفيذ الطاعات التي يرتضيها ويدعو اليها، وإنه تعالى ينهى العبد ويمنعه من القيام بالمنكرات والقبائح التي تسخطه وتغضبه، وكل ذلك مرتبط بالحكم على هذه الأفعال وفاقاً لمبدأ الثواب والعقاب الذي يجازي الله به العباد وهذا هو معنى القضاء.

أقول: وهذا الوجه الذي فصّله الإمام معتمد على قول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٩١] ومرتبط أيضاً بمشيئته جل جلاله؛ لأنه هو الذي مكّن الإنسان ومنحه المشيئة والقوة والنعمة، والسمع والبصر، فإن العبد لا يفعل فعلا أو يتركه إلاّ بقضاء الله وقدرته ومشيئته، ولكن هذا (القضاء) لا يكون قضاء لازماً وهذا (القدر) ليس قدراً محتوماً. وهذا ما أبان عنه الإمام علي عليه السلام الذي أجاب بعض السائلين عند مسيرهم الى الشام بأنّ خروجهم كان بقضاء وقدر، فقال له الإمام: **لعلك ظننت قضاء لازماً وقدراً حاتماً، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد الوعيد. وإنّ الله سبحانه أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يُطع مكرها ولم يُرْسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظنُّ الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار**[٩٢].

ومما يمكن ذكره من أقوال الإمام الرضا عليه السلام لتوضيح هذه المسألة قوله عليه السلام التي ينقلها عن جده الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام، إذ يقول مخاطباً بعض أصحابه: **اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. قال علي بن الحسين عليه السلام: قال الله عز وجل: يابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء، وبقوتي أدّيت إليّ فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي. جعلتك سميعاً بصيراً، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذلك أني أوْلى بحسناتك منك وأنت أوْلى بسيئاتك مني، وذلك إني لا أُسأل عما أفعل وهم يُسْألون. قد نظمت لك كل شيء تريد**[٩٣].

وبهذا الوصف الذي ينقله الإمام الرضا عليه السلام يكون كلامهم عليهم السلام في مسألة (الجبروالتفويض) أو (القضاء والقدر) متكاملاً يتمم بعضه بعضاً، ويوضح بعضه بعضاً يقوم على فكرة قرآنية توحيدية واحدة مؤداها: إنّ الله أملك بالتفرّد

والوحدانية، وهوملاك العدل والرأفة والرحمة بالعبد من العبد نفسه. وأنّه لم يترك الانسان حراً في أفعاله جميعاً كما أنه لم يكرهه على فعل أفعاله الحسنة والقبيحة، وإنما الهمه الصواب وسدد خطاه وعلمه الصلاح والخطأ، وألْهَمَ النفس الانسانية فجورها وتقواها، فصار الانسان فاعلاً بقدرة الله، ولكنه في الوقت نفسه هو الذي يختار أعماله من جهة صوابها وخللها، جاعلاً الفيصل في ذلك مبدأ (الثواب) على الأعمال الحسنة و(العقاب)على الأعمال السيئة المشينة.

... الخاتمة ...

بعد الفراغ من هذا البحث المتواضع، الذي أتمنى على الله تبارك وتعالى أن يكون مقبولاً عنده وعند مولانا الإمام الرضا عليه السلام، خرجت بجملة من النتائج التي أذكر منها ما يأتي:

١. إنّ الإمام الرضا عليه السلام واحد من أبرز أعلام أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين تصدوا لنشر الفكر الاسلامي الصحيح في بلاد خراسان بعدما انتقل اليها لمّا أقدمه المأمون العباسي اليها.

٢. اعتمد الإمام في نشر الفكر الاسلامي على أساس مهم، وهو ضرورة الاعتماد في فهم النص القرآني على عترة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد افتتح ذلك النمط من التوجه بقولته المعروفة التي نقلها عن جدّه رسول الله في أثناء ذهابه الى خرسان ماراً بنيسابور في الحديث المعروف بحديث (سلسلة الذهب): (لا اله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي. ثم قال: بشروطها وانا من شروطها).

٣. ومن الحديث المتقدم تتضح عنايته عليه السلام بمباحث التوحيد الآلهي التي صدرها، بقول (لا إله إلاّ الله).

٤. تبيّن من خلال البحث أنّ عند الإمام علي الرضا عليه السلام كماً كبيراً من الآراء في تفسير القرآن الكريم، ولذا وجب علينا القيام بجمع هذا التراث القرآني وعدم

التفريط به،لما يمثله من ذخيرة تغني الدارسين والباحثين في الفكر الإسلامي.

٥. تمثل مدرسة الإمام الرضا عليه السلام مكملاً لمنهج أهل البيت عليهم السلام في قراءة الاسلام وتثبيت أركانه ومكوناته بحسب ما أوجبه القرآن الكريم.

٦. لم يقتصر جهد الإمام الرضا عليه السلام على تنزيه الإسلام من الشبهات التي وضعها بعض من يحسب على الاسلام، وإنما تجاوز ذلك الى تصحيح الأفكار في الديانات الأخرى، من خلال دفاعه عن النبي عيسى عليه السلام، ونفيه عقيدة (التثليث) التي يقول بها النصارى الذين يعدون المسيح ابناً لله جل جلاله، فنفى عنه الإمام ذلك مؤكداً أنه كان عبداً لله تبارك وتعالى.

.....

١) البقرة / ١، ٢.
٢) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: ١ / ٣.
٣) نفسه.
٤) ينظر: المحرر الوجيز:١/ ١٦.
٥) الاسراء / ٨٨.
٦) التوحيد للشيخ الصدوق: ١٦، وينظر: تفسيرالأمثل للشيخ ناصر مكارم الشيرزاي: ١/ ٧٠.
٧) البقرة / ١.
٨) تفسير الامثل: ١/ ٧٠.
٩) آل عمران / ٧.
١٠) ينظر: الاتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ٢/ ٥.
١١) نفسه.
١٢) تفسير الامثل: ٢/ ٤٠٥.

١٣) نفسه
١٤) ال عمران / ٧
١٥) آل عمران / ٧
١٦) عيون اخبار الرضا، للصدوق: ١/ ١٥٣.
١٧) بحار الانوار: ٨٩/ ١١١، ١١٢.
١٨) ينظر: لسان العرب (غضض): ٧/ ١٩٦.
١٩) بحار الانوار: ٨٩/ ١٥، وينظر: التفسير الأمثل: ١/ ٢١٦.
٢٠) سنن الدارمي: ٢/ ٥٢٤.
٢١) مسند احمد بن حنبل: ٣ / ١٤.
٢٢) النحل / ٤٣، وتنظر: الانبياء / ٧.
٢٣) تفسير الامثل: ٨ / ١٩٨.
٢٤) ينظر: تفسير الطبري: ١٤/ ١٠٨، والكشاف: ٢ / ٥٦٧.
٢٥) عيون اخبار الرضا عليه السلام: ٢ / ٢٤٣، وتفسير الأمثل: ٨ / ٢٠٠.
٢٦) الطلاق / ١٠، ١١.
٢٧) عيون اخبار الرضا: ٢ / ٢٤٣.
٢٨) ينظر: التتفسير الأمثل: ٨ / ٢٠٠.
٢٩) نفسه: ٩/ ٦٩.
٣٠) فاطر / ٣٢.
٣١) ينظر: الشيعة في الميزان، لمحمد جواد مغنية: ٢٥٨.
٣٢) ينظر: الشيعة في الميزان: ٢٥٨.
٣٣) وسائل الشيعة: ٢٧/ ١٨٣، ٢٠١، وبحار الأنوار: ٢٣ / ٢١٣، وينظر مجمع البيان: ٨ / ٢١٥.
٣٤) الحج / ٧٨.
٣٥) اكمال الدين واتمام النعمة، للصدوق: ٣ / ٥٢٦، والتفسير الامثل: ١٠ / ٤٠٨.
٣٦) ينظر: التفسير الأمثل: ١٠ / ٤٠٨.
٣٧) اصول الكافي: ١٧١، والتفسير الأمثل ٦ / ٢٠٦.
٣٨) التوبة / ١٠٥.

٣٩) نفسها.
٤٠) المائدة / ٥٥.
٤١) الكافي، للكليني: ١ / ٤٣٥، ومرآة العقول في شرح أخبار الرسول، للمجلسي: ٣ / ٢٧٨.
٤٢) ينظر: بحار الانوار: ٢٤ / ١٨٤، وتفسير الأمثل: ١٦ / ٤٨٣.
٤٣) الفتح / ٢٦.
٤٤) الكشاف، للزمخشري: ٢٦ / ٥١٤.
٤٥) نفسه.
٤٦) نفسه.
٤٧) البقرة / ٢٥٦.
٤٨) لقمان / ٢٢.
٤٩) ينظر: الكشاف: ٤١٣.
٥٠) الاحزاب / ٧٢.
٥١) بحار الانوار: ٣/ ٥٨٧، والتفسير الامثل: ١٣/ ٣٧١.
٥٢) نهج البلاغة: ٢٥.
٥٣) المائدة / ٥٥.
٥٤) ينظر: تفسير الطبري: ٦ / ٢٨٨ والكشاف ١/ ٦٨٢، والمحرر الوجيز: ٢/ ٢٠٨.
٥٥) الامالي، للشيخ المفيد: ١ / ٢٢٨.
٥٦) ينظر: لسان العرب (عصم): ١٢ / ٤٠٣.
٥٧) نفسه.
٥٨) النكت الاعتقادية، للشيخ المفيد: ٣٧.
٥٩) نفسه.
٦٠) ينظر: هوية التشيّع، للشيخ د. أحمد الوائلي: ١٧.
٦١) التوبة / ٤٣.
٦٢) الزمر / ٦٥.
٦٣) الاسراء / ٧٤.
٦٤) التفسير الأمثل: ١٥ / ١٤٣.
٦٥) ينظر: لسان العرب (عفا): ١٥/ ٧٢.

٦٦) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ٥/ ٢٢١.
٦٧) ينظر: المحرر الوجيز: ٣/ ٣٨
٦٨) ينظر: الكشاف: ٢/ ٢٦١، ٢٦٢.
٦٩) بحار الانوار: ٢٥ / ١٩٤.
٧٠) معاني الاخبار، للصدوق: ٢ / ١٣٢.
٧١) يوسف / ٢٤.
٧٢) التفسير الأمثل: ٧/ ١٨٠.
٧٣) عيون الأخبار: ٢/ ٢٠٢، وبحار الانوار: ١٢ / ٣٣٥.
٧٤) يراجع في ذلك على سبيل المثال: عيون اخبار الرضا عليه السلام وبحار الانوار للعلامة المجلسي.
٧٥) ينظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، للقرطبي: ١ / ٧٧.
٧٦) التوحيد، للصدوق: ٤١٦ و ٤٣١، وعيون اخبار الرضا: ٢ / ١٥٥.
٧٧) المائدة / ٧٢.
٧٨) المائدة / ٧٣.
٧٩) المائدة / ٧٥.
٨٠) النساء / ١٧١.
٨١) الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة، هاشم معروف الحسني: ١٩.
٨٢) نهج البلاغة: ١٤١.
٨٣) هود / ٧.
٨٤) عيون اخبار الرضا: ٢٠/ ١٣١.
٨٥) لقد تكلم في هذه المسألة الكثير من فلاسفة اليونان والسريانيون والزرادشتيون والنصارى. ينظر: هوية التشيع: ٦٨.
٨٦) ينظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١ / ٨٥.
٨٧) ينظر: لسان الميزان، لابن حجر: ٢ / ١٠٥، وتهذيب التهذيب: ٨ / ٣٠١.
٨٨) ينظر: الرد على الجهمية، للدرامي: ١ / ٢٠٤، والأسماء والصفات، للبيهقي: ١ / ٦١٧.
٨٩) الكافي: ١ / ٢٣٧، وبحار الانوار: ٥/ ١٢.
٩٠) الفصول المهمة في أصول الأئمة، للحر العاملي: ١ / ٢٣٦، ٢٣٧.
٩١) الانسان / ٣.

٩٢) نهج البلاغة: ٤/ ١١. وينظر: عوالي اللآلئ، للاحسائي: ٤/ ٣٨.

٩٣) الفصول / المهمة: ١ / ٢٣٣.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١) الأسماء والصفات، لأحمد بن الحسيني البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق عبد الله بن حميد الحاشدي، د. ط، مكتبة السّواري، جدة، د.ت.

٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، تأليف محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي(ت ٧١٢هـ) تحقيق: د. أحمد حجازي السّقا، د. ط، دار التراث العربي القاهرة، ١٣٩٨.

٣) الأمالي، للشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد (ت٤١٣هـ)، تحقيق:الحسين استاد ولي علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية،١٤٠٣هـ.

٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، تأليف العلاّمة الفقيه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، (د-ط)،نشر قسم الترجمة والنشر في مدرسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - إيران، (د-ت).

٥) بحار الأنوار، للعلامة الحجة الشيخ محمد باقر المجلسي(١١١١هـ)، د.ط، مؤسسة الوفاء، بيروت، د.ت.

٦) التبيان في تفسير القرآن، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ) تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، د.ط، مطبعة الجامعة الاسلامية، طهران.

٧) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، تأليف مجد الدين الفيروز آبادي (ت ٨٠٧ هـ)، دار الكتب العلمية - لبنان، (د. ت).

٨) تهذيب التهذيب، تأليف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت٨٥٢هـ) ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٩) التوحيد، للشيخ الجليل الأقدم الصدوق (٣٨١هـ)، تحقيق السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين بقم المقدسة، د.ت.

١٠) جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، تأليف محمد بن جرير بن يزيد بن كثير المكنى بـ (أبي جعفر الطبري) (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠ م.

١١) الرد علي الجهمية، لعثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي(٢٨٠هـ)، تحقيق: بدر عبد الله البدر، دار ابن الأثير، الكويت، ١٩٩٥ م.

١٢) الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، تأليف هاشم معروف الحسني.

١٣) عوالي اللآلئ لابن أبي جمهور الإحسائي، د.ط، انتشارات سيد الشهداء عليه السلام، قم المقدسة، ١٤٠٥هـ.

١٤) عيون أخبار الرضا، للشيخ الأقدم والمحدث الأكبر أبي جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، صححه وقدم له وعلق عليه العلامة حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت.

١٥) الفصول المهمة في أصول الأئمة، للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق: محمد بن محمد الحسني القائيني، ط١، مؤسسة المعارف الإسلامية، طهران، ١٤١٨هـ.

١٦) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، د.ط، دار احيار التراث العربي، بيروت، د.ت.

١٧) لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر بيروت، لبنان، د.ت.

١٨) لسان الميزان، تأليف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: دائرة المعرفة النظامية بالهند، ط/ ٣، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

١٩) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الاندلسي(ت ٥٤٢هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٢٠) معاني الأخبار،للشيخ الأقدم أبي جعفر محمد بن علي القمي الصدوق،عني بتصحيحه علي أكبر غفاري، انتشارات اسلامي،طهران،١٣٦١هـ.

٢١) الملل والنحل، لأبي بكر محمد بن عبد الكريم أحمد الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٢٢) النكت الاعتقادية، للشيخ المفيد،(ط/ ٢)،دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت،١٤١٤هـ.

٢٣) نهج البلاغة وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من اقوال الامام علي عليه السلام، شرح الشيخ محمد عبده، دار المؤرخ العربي، بيروت.

٢٤) هوية التّشيّع، للشيخ الدكتور أحمد الوائلي، (ط/ ٣)، دار الصفوة، بيروت، ١٤١٤هـ.